

الفصل الأول

التاريخ خير شاهد

التاريخ خير شاهد

يقول الحق تبارك وتعالى في محكم آياته : ﴿لقد كان لكم في قصصهم عبرة﴾ . (يوسف/ ١١١) ، ومعنى ذلك أن قصص السابقين علينا نحن المسلمين ، والتي أورد الله كثيراً منها في سور عديدة من القرآن الكريم ، ينبغي علينا أن نتلمس الاستفادة منها قدر طاقتنا ، وأن نقف منها موقف المتعلم الذي ينبغي تحصيل الفائدة لنفسه وللأجيال من بعده .

وبجانب ما ورد في القرآن العظيم من قصص السابقين هناك ما سجلته الشعوب عن نفسها في سجلات خاصة بها على شكل ألواح مكتوبة ، أو على صورة آثار تحكى ما كان يجري على أراضيها من أحداث ، أو على هيئة ما تداوله القصاص والشعراء من قصص وحكايات وأشعار ، وكلها حين تجمع مع بعضها ، أو حين توضع بجوار بعضها البعض تظهر لنا " بانوراما " هائلة للجنس البشري ، باتساع المعمورة وعبر مناطقها وأقاليمها المختلفة والمتنوعة .

وهناك علماء أوتوا القدرة على الغوص في أعماق التاريخ ، وعلى شرح أحداثه وربطها بعضها ببعض في فلسفة هادفة تبتغي تعريف الأجيال الحاضرة . . والقادمة بماضي البشرية وما جرى لها في أنحاء متفرقة من العالم ، وهم قلة - أي هؤلاء العلماء - ولكنهم متميزون منهم " أرنولد توينبي " ، " ول . ديورانت " على وجه التحديد . الأول كتب لنا " دراسة في التاريخ " والثاني أبدع في " قصة الحضارة " . يقول العقاد " رحمه الله ، عن " توينبي " أنه " بدأ تأليف كتابه في سنة ألف وتسعمائة وإحدى وعشرين (ميلادية بطبيعة الحال) ، بعد نشوب الحرب العالمية الأولى بستين ، وأتمه وأصدر آخر أجزائه قبل ختام السنة الماضية (كان كلام العقاد عام ١٩٥٥م) ،

فانقضى عليه في تأليفه ثلث قرن كامل ، وتم الكتاب كله في عشرة أجزاء لا تقل صفحاتها عن سبعة آلاف صفحة ، ولم ينته من أجزائه الأخيرة حتى بدا له أن يعيد النظر في بعض الآراء التي ظهرت في الأجزاء الأولى ، ولكن المهمة شاقة ، والتكاليف كثيرة ، فترجع له بعض المعاهد العلمية بالنفقة اللازمة للسياحة في مواطن الحضارات الدائرة ، والإقامة حيث تلزم الإقامة زمنياً بين آثار المكسيك والشرقين الأقصى والأدنى ، ولا تنتهي هذه السياحات التاريخية قبل ستين من ظهور آخر جزء في الكتاب .

مجهود من مجهودات الجبابة ، وعلم واسع يؤهل صاحبه للحكم على دلالة التاريخ الإنساني ، من مبدئه إلى عصره الحاضر ، أو يؤهله لاستخراج الوجهة المرتسمة من حوادث التاريخ ، ثم استخراج الفكرة التي تتجلى فيه ، عصرأ بعد عصر ، وحضارة بعد حضارة ، ونزاعاً بعد نزاع ، وسلاماً بعد سلام ، وهذا هو الذي سميناه تلخيص التاريخ الإنساني في سطر أو سطرين ، فما هي الفكرة التي يلخصها السطر والسطران في رأي هذا المؤرخ الكبير . ؟ ما هو الرأي الذي يراه في تاريخ الإنسانية أحق علماء التاريخ بإبداء هذا الرأي في القرن العشرين . ؟

خلاصة هذا الرأي سطر واحد هو أن " التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله " هذا هو الرأي الإجمالي الذي شرحه المؤرخ الكبير في سبعة آلاف صفحة ، وقرر في ذلك الشرح أن تواريخ الأمم والحضارات والعقائد والأخلاق لا معنى لها إذا لم يكن معناها هداية النفس الإنسانية إلى حرية الضمير برعاية الإله . (١)

وعنده - أي عند توينبي - أن كل أمة ، وكل حضارة ، وكل عقيدة إنما تأتي لترفع

(١) عباس محمود العقاد : الإسلام والحضارة الإنسانية ، المكتبة العصرية ، بيروت . صيدا ، (بدون تاريخ) ، ص ص ٧٥ - ٧٦ .

في الطريق مصباحاً صغيراً، أو كبيراً، ينير الطريق، وينير ساحة الكون كله للعالم بحقائق الوجود، أو للعلم بحقيقة الحقائق، وهي مصدر الخلق والتدبير في الوجود. ومن تقارير المؤرخ الكبير أن الإنسان قد يصطنع الأعمال والحرف، ويخلق العلوم والمعارف، ولكنه لا يخلق عقيدته الدينية، بل تأتيه العقيدة مفروضة على سريره وشعوره، قابلة للبحث في بعض جوانبها، غير قابلة لشيء سوى التسليم في جوانبها الكبرى، ولهذا تسخره العقيدة. ولا يسخرها هو كما يهوى، وإن خيل إليه أنه يعمل في تسخيرها بهواه.

وضرب لنا المؤرخ الكبير المثل بعقيدة الإسلام: أراد الفرس الذين دخلوا الإسلام أن يستخدموها في إحياء القومية الفارسية فاستخدمتهم هي في توطيدها ودراسة معارفها، وجاء المغول إلى بلادها من أقصى الشرق ليقوموا سلطتهم على أركانها، فأصبحوا حراساً لتلك الأركان، ولا يتأتى تسخير عقيدة ما إلا إذا غلبتها عقيدة أقوى منها وأحق بالعمل في تاريخ الإنسانية، فليس أقوى من الإيمان على تسيير الإنسان، والارتقاء به على معارج الحضارة في طريقه إلى الله.

وما كتبه "العقاد" عن "توينبي" نعتقد أنه ينطبق إلى حد كبير على أحد العلماء العباقر، أو الجبابرة، الذين لديهم القدرة على العطاء، والصبر على البحث، وهو "ول. ديورانت" مؤلف الموسوعة الهائلة "قصة الحضارة" والتي طوّف خلالها في كل ركن من أركان الدنيا، وعبر عصور التاريخ البشرى كلها، يبحث في تواريخ الشعوب، ويدرس جماعاتها، ويقارن حضاراتها، يحاول الوقوف على أسباب نهوضها، كما يتعمق في عوامل ضعفها وانحلالها، يقدر المخترعات التي توصلت إليها، سواء في المجالات المادية، وهو ما اصطللحنا عليه هذه الأيام بالمنتجات التكنولوجية، أو في مجالات الأدب والشعر والمسرح والرياضة، وسائر الفنون الأخرى، فهذه كلها منتجات حضارية، وهي تختلف من شعب إلى آخر، ومن أمة

إلى أخرى، فنجدته يتحدث عن الأدب، واللغة، كما يتحدث عن نظم الحكم، وعن الأسرة، يتحدث عن الدين، كما يتحدث عن المنحرفين بعيداً عن الدين، وحتى عن الذين انحرفوا داخل معابد يفترض أنها أقيمت باسم الدين^(١)..!!

إن هذا العالم المدقق لم يفته أن الحضارات تقوم وتنشأ على أكتاف الجنسين.. الذكر والأنثى، ولذا نجده لا يترك أمة من الأمم، أو شعباً من الشعوب إلا وقد بحث في النوعين، في علاقتهما ببعضهما، وفي موقعهما من الأحداث في عصرهما، في تكاملهما، وفي تنافرهما، في اضطهاد طرف (غالباً هو طرف الرجال) للطرف الآخر (هو بطبيعة الحال طرف النساء)، في التسلط والتجبر، في الخضوع والخنوع، في الصراع، وفي التحدى والسقوط ومحاولات النهوض..

ومعياره الذي استعمله في قياسه لحضارات الشعوب ونهوضها هو مدى توافق الجنسين معاً، ومدى استجابتهما لبعضهما، واحترامهما بعضهما البعض الآخر، فالحضارة دوماً في قمة مجدها عندما يتعاونان، وحينما يوضع كل منهما في موضعه الصحيح، وحينما تنحل الحضارة وتهبط أو حينما تؤذَن بانحلال وهبوط نجد أن أحد أطراف المعادلة قد جار على الطرف الآخر وهضم حقوقه، بل وضيّعها، ومن هنا فلا يمكن لتلك الحضارة أن تخلق في عوالم المتقدمين.. ببساطة لأنها لا تستطيع أن تطير بجناح واحد. ولعلنا نقوم معاً بسياحة فكرية في أعمال هذا المفكر خلال صفحات هذا الفصل عن المرأة.. عبر التاريخ.. ووسط الحضارات.

يقول صاحب " قصة الحضارة " ول. ديورانت في بدايات كتاباته عن الإنسان البدائي، قبل التاريخ، وقبل نشوء الحضارات وبعد أن يعقد عدة مقارنات عن الطير والحيوان، يقول عن الإنسان " والقاعدة العامة في عالم الإنسان من أول نشأته

(١) المرجع السابق، ص ص ٧٦ - ٧٧.

هي أن متوسط المواليد ومتوسط الوفيات يهبطان معاً كلما ازدادت المدنية صعوداً. إن عناية الأسرة بأبنائها إذا ما حسنت، مكنت النشء من مدة أطول يقيمونها تحت جناح الأسرة، فيكمل تدريبهم ونموهم إلى درجة أكبر، قبل أن يُقذف بهم ليعتمدوا على أنفسهم، وكذلك قلة المواليد تصرف المجهود البشري إلى أوجه أخرى من النشاط بدل استنفاده كله في عملية النسل.

ولما كان يعهد إلى الأم بأداء معظم ما تقتضيه العناية بالأبناء من خدمات، فقد كان تنظيم الأسرة في أول أمرها (ما استطعنا أن ننفذ بأبصارنا خلال ضباب التاريخ) قائماً على أساس أن منزلة الرجل في الأسرة كانت تافهة وعارضة، بينما مهمة الأم أساسية لا تعلوها مهمة أخرى^(١).

وهكذا كانت المرأة في بداية عهدها على الأرض، وقبل عصور التاريخ المعروفة لنا، كانت تعيش على فطرتها السوية التي خلقها الله عليها، فكانت مشاركة للرجل في حياته، وفي عمله، وأكثر من ذلك أنها اختصت بأهم وظيفة يمكن أن يعهد إليها القيام بها، ألا وهي تربية الأبناء، والعناية بهم حتى يخرجوا إلى الحياة أصحاب أقياء، ولعمرى إنه مطلب غاية في الأهمية في عصرنا الذي نعيشه.

حضارة المصريين القدماء،

وينتقل بنا المؤرخ الكبير خطوة في أعماق التاريخ ليصل إلى حضارة المصريين القدماء، والتي احتلت فيها المرأة مكانة مرموقة، وصلت في مفهوم المصريين آنذاك إلى درجة الألوهية، والعباد بالله، مثلها في ذلك مثل الرجل، " ولم يكن آلهة مصر من الآدميين إلا رجالاً متفوقين أو نساء متفوقات خلقوا في صورة عظيمة باسلة،

(١) ول. ديورانت: قصة الحضارة. . نشأة الحضارة. . الشرق الأدنى، ترجمة زكي نجيب محمود، جامعة الدول العربية - الإدارة الثقافية، القاهرة، ط ٣، (الجزآن ١، ٢)، ص ص ٥٥ - ٥٦.

ولكنهم خلقوا من عظام وعضلات ولحم ودم، يجوعون ويأكلون، ويظمأون ويشربون، ويحسون ويتزوجون، ويكرهون ويقتلون، ويشيخون ويموتون " ١١! (١)

وما كان معروفاً عند أصحاب هذه الحضارة أن الرجل كان من الممكن أن يتزوج أخته، ولا حرج عليهما في ذلك، والدليل على ذلك أسطورة « إيزيس » الشهيرة في التاريخ المصري القديم والتي كانت أخت " أوزير " وزوجته في نفس الوقت. (٢)، ويقول " ديورانت " إن " إيزيس " كانت من بعض الوجوه أجل من " أوزير " قدراً، لأنها قهرت الموت بالحب، شأنها في ذلك شأن النساء بوجه عام، كذلك لم يكن فضلها مقصوراً على أرض النهر التي أخصبها مس " أوزير " (النيل) فأغنت مصر كلها بإنتاجها. . . . ولقد كانت هي التي أوجدت ذلك الحنو الأموي الذي يحيط بالحياة الجديدة حتى يتم نموها، مهما كلفها من جهد وعناء. . . وكانت ترمز - في مصر - إلى ما للعنصر النسوي من أسبقية وأفضلية واستقلال في الخلق، وفي الميراث، وإلى ما كان للمرأة أول الأمر من زعامة في حرث الأرض. (٣)

ويبين الكاتب المؤرخ للحضارات الإنسانية أن هذه الأساطير المصرية أثرت في الأجيال الأولى من المسيحيين حتى إنهم كانوا أحياناً يصلُّون أمام تمثال " إيزيس " الذي يصورها وهي ترضع طفلها " حورس "، وكانوا يرون فيها صورة أخرى للأسطورة القديمة النبيلة، أسطورة المرأة (أي العنصر النسوي) الخالقة لكل شيء، والتي تصبح آخر الأمر أم الإله. (٤)

وننتقل مع الرجل المؤرخ خطوة أخرى إلى عصر " بوذا " وتعاليمه والتي سبق

(١) المرجع السابق، ص ١٥٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٠.

(٤) المرجع السابق.

عصر عيسى ، عليه السلام (تعاليم بوذا ، أو " سلاسل القانون " أعدت لتعرض على المجلس البوذي الذي انعقد عام ٢٤١ قبل الميلاد ، وقد وافق هذا المجلس على أن ما في هذه الوثائق هو تعاليم بوذا الذي عاش في الهند بغير تحريف) . ونقرأ عن " بوذا " أنه لم يكن يطمئن نفساً في حضرة النساء وقد تردد كثيراً قبل أن يسمح لهن بالانضمام إلى الطائفة البوذية ، ولقد سأله تلميذه المقرب " أناندا " ذات يوم :

- كيف ينبغي لنا يا مولاي أن نسلك أمام النساء . . ؟

- كما لو لم تكن قد رأيتهن يا أناندا . . !!

- لكن ماذا نصنع لو تحتمت علينا رؤيتهن . . ؟

- لا نتحدث إليهن يا أناندا . . !!

- لكن إذا ما تحدثن إلينا يا مولاي فماذا نصنع . . ؟

- كن منهن على حذر تام يا أناندا . . !! (١)

وليس هناك أدل على تجاهل المرأة وإهمال شأنها من هذه المحادثة ، وهذه الإجابات الواضحة القاطعة التي لا تحتاج إلى تفسير ، ولا شك أن أتباع " بوذا " قد اتبعوا تعاليمه ، ونفذوا وصاياه فيما يختص بالمرأة ، وقد كان هؤلاء الأتباع كثيرين فيما يرويه التاريخ .

حضارة الهند:

ويعقد " ول . ديورانت " فصلاً كاملاً في كتابته عن حضارة الهند تحت عنوان " الأخلاق والزواج " يقدم لنا فيه معلومات مذهلة عن الانحطاط الذي وصل إليه الكهنة في معابد جنوب الهند ، حيث يقول : " وكان الزنا في الأعم الأغلب مقصوراً على المعابد ، ففي الأصقاع الجنوبية كانت رغبات الرجل الشهواني تشبعها له من كن

(١) ول . ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الثالث ، الهند وجيرانها ، ص ٧٧ .

يطلق عليهن " خادמות الله " ، طائعات في ذلك أوامر السماء ، وما خادמות الله - أو " دالاداس " كما يسمونهن - إلا العاهرات ، وفي كل معبد في " تامل " مجموعة من النساء المقدسات " اللائي كن يستخدمهن المعبد أول الأمر في الرقص والغناء أمام الأوثان ، ثم من الجائز أن يستخدمن بعد ذلك في إمتاع الكهنة البراهمة ، وبعض هؤلاء النسوة - فيما يظهر - قد قصرن حياتهن على عزلة المعابد وكهانها ، وبعضهن الآخر قد وسّع من نطاق خدماته بحيث يشمل كل من يدفع أجراً لمتعته ، على شريطة أن يدفعن لرجال الدين جزءاً من كسبهن عن هذا الطريق(!!)(١)

ومن هذا الكلام السابق يتبين للقاريء مدى الانحدار القيمي والأخلاقي الذي وصل إليه رجال الدين ، أو من كانوا يدعون كذلك في هذا الركن من العالم ، كما يتبين كذلك مدى المهانة التي انزلت إليها مكانة المرأة عندهم ، فهي فقط للاستمتاع الجسدي . . في المعابد (!!)، وهي كذلك لجمع شيء من الأموال لمن أسموا أنفسهم رجال دين ، ويالها من وظيفة ، وياله من انحلال . . !!

الحضارة اليابانية:

ولا زلنا مع الرجل الذي أرخ لقصة الحضارة في العالم والذي استغرقه الوقت في كتابتها عشرات الأعوام ولا عجب ، فلقد اشتملت على ستة عشر مجلداً ضخماً ، ضمت اثنين وثلاثين جزءاً ، وزادت صفحاتها على ستة آلاف . . . ففي مجلده الخامس كتب عن الحضارة اليابانية فيما يختص بالمرأة ما يلي : في اليابان الأسرة هي المصدر الحقيقي للنظم الاجتماعية . . . والسلطة كلها تتجمع في يد الأب ، ولقد كانت سلطة الوالد استبدادية لأن الأسرة كانت هي وحدة الإنتاج في عالم الاقتصاد ، كما كانت وحدة النظام الاجتماعي ، ومن هنا فإن النجاح أو الفشل ، بل الحياة أو

(١) المرجع السابق ، ص ص ١٧٤ - ١٧٥ .

الموت ، لم يكن ينحصر فرداً بذاته ولكن كان يصيب الأسرة كلها ، ومن هنا كان لابد للوالد من الضبط . ومن السيطرة ، وكانت سلطة الوالد هذه بلا حدود ، حتى إنه كان يمكن أن يقتل ابنه أو ابنته . . بل وأن يبيع أبنائه وبناته في سوق النخاسة أو سوق الدعارة ، وكان في مقدوره أن يطلق امرأته بكلمة واحدة . (١)

وإذا ما كان الرجل من عامة الشعب ، كان الأغلب أن يقتصر على زوجة واحدة ، أما إذا كان من أبناء الطبقة العليا فقد كان من حقه أن يحيط نفسه بالخليلات ، ولم يكن أحد ليهتم بما يقترفه من خيانة زوجية آنأ بعد آن . (٢)

ويركز الرجل حديثه على وضع المرأة في اليابان في عهودها الأولى فيقول : " وكانت منزلة المرأة في اليابان - كما هي الحال في الصين - أعلى في مراحل المدنية الأولى منها في المراحل المتأخرة ، فترى نساء بين حكام البلاد إبان العهد الإمبراطوري ، ولقد لعبت المرأة في طوكيو دوراً هاماً ، بل لعبت الدور الأول في حياة الأمة الاجتماعية والأدبية ، وفي ذلك العهد الذهبي للثقافة اليابانية - لو جاز لنا أن نجازف بالرأي في مثل هذه النواحي الغامضة - سبق الزوجات أزواجهن في عالم الزنا (!!!) بحيث كن يبعن العفة بقول جميل يقال . (٣)!!

وانحدرت مكانة المرأة أكثر . . وأكثر . . حين انتشرت نظرية أهل الصين في إخضاع الرجل للمرأة ، حيث انتشر النظام الإقطاعي الحربي ، وحين تناوب البلاد تهاون وشدة جعلاً يتعاقبان على نحو طبيعي يسجله التاريخ ، فأصبح المجتمع يسوده الذكور ، وأذعنت النساء " للطاعات الثلاث " - الوالد والزوج والابن - وأوشك الناس ألا يضيعوا جهدهم في تعليم النساء . . وطولب النساء بالأمانة

(١) ول . ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الخامس ، (اليابان) ، ص ص ٦٢ - ٦٣ .

(٢) ول . ديورانت ، ص ٦٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٣ .

الزوجية يتهددهن في ذلك عقوبة الإعدام، فإذا وجد الزوج زوجته متلبسة بجريمة الزنا، كان من حقه أن يقتلها مع عشيقها فوراً. . . وقد نصح الفيلسوف " إكن " للزوج أن يطلق زوجته إذا ما أسرفت في حديثها من حيث ارتفاع الصوت، أو طول الكلام، أما إذا حدث أن كان الزوج منحل الخلق، وحشي الطبع، فينبغي على الزوجة - في رأى " إكن " - أن تضاعف له الرحمة والدعة، وفي ظل هذا التدريب الشديد، أصبحت المرأة اليابانية أنشط الزوجات وأخلصهن، وأكثرهن طاعة. (١)

حضارة اليونان:

ونصل إلى حضارة اليونان. . . والتي عاشت نهضة حضارية كبرى اشتهرت فيما عرف بعصرها الذهبي، خاصة في " أثينا " والتي كانت تمارس فيها أنواع من الديمقراطية والحرية لم تعرفها كثير من الشعوب، كما سنت فيها قوانين حددت العلاقات بين طبقات المجتمع المختلفة، ولكن عابها أنها كانت لصالح طبقة دون أخرى، مما أدى إلى قيام الصراع بين تلك الطبقات (٢) وفي صفحات عديدة يحدثنا مؤرخ الحضارة عن شعب اليونان على أن أفرادهم رغم تقدمهم وقوانينهم وعلومهم إلا أن الجانب الأخلاقي لديهم لم يكن على خير ما يرام، فقد كان الغش والفساد والرشوة منتشرة بينهم بشكل كبير. (٣)

ونصل إلى ما يهمنا في الموضوع، وهو مكانة المرأة عندهم، وعلاقتها بالرجل، فنجد أن رجالها والنساء - في أثينا - يعترفون جميعاً بأن العلاقات الجنسية هي أساس الحب، وكانت القيود المفروضة على الرجال واهية وكانوا يطلقون العنان لغرائزهم الجنسية في الأعياد الكبرى التي هي دينية (!!!) في أصلها، ويقولون إن ذلك ييسر

(١) المرجع السابق، ص ٦٣.

(٢) ول. ديورانت: قصة الحضارة، حياة اليونان، ترجمة محمد بدران، المجلد السابع، ص ٦٩.

(٣) المرجع السابق، ص ص ٩٣ - ٩٧.

لهم فيما بقى من العام أن يقتصر كل منهم على زوجته الوحيدة^(١) . . !! بل وكانت أثينا تعترف بالبعاء رسمياً ، وتفرض ضريبة على ممارسيه .^(٢)

وتنحدر الحضارة اليونانية أكثر نحو مستنقع الرذيلة حين نقرأ " وأصبح العهر في أثينا ، كما أصبح في معظم مدن اليونان ، مهنة كثيرة السبل ميسرة أمام المرأة ذات الكفاية (!!) للترقي في هذه المهنة ، كما كانت ميسرة للترقي في غيرها من المهن في تلك المدينة . . وكانت هناك مواخير ، وكان هناك تدريب (!!) على الفجور ، وكان هناك بيع للشرف ، واستجار له . . بالأسبوع . . أو بالشهر . . وحتى بالعام . . !! وكانت العاهرات طبقات . . ولكل طبقة ثمن . . !! وهذا هو " العصر الذهبي " لليونان . . !!!

وكان في وسع الرجل أن يتخذ له فضلاً عن زوجته خلية يعاشرها معاشرة الأزواج ، وفي ذلك يقول دسطين : « إنا نتخذ العاهرات للذة ، والخليلات لصحة أجسامنا اليومية ، والأزواج ليلدن لنا الأبناء الشرعيين ، ويعنين ببيتنا عناية تنطوي على الأمانة والإخلاص . وفي هذه الجملة الواحدة العجبية جمع دسطين رأى اليونان في المرأة إبان عصرهم الذهبي ، هكذا علق " ول . ديورانت " .^(٣)

وكان من السهل على الرجل أن يطلق زوجته ، وكان في وسعه أن يطردها من بيته متى جاء ، من غير أن يبدي لذلك سبباً ، وكانوا يرون عقم الزوجة سبباً كافياً لطلاقها ، لأن الغرض من الزواج عندهم هو إنجاب الأبناء ، أما إذا كان الرجل نفسه عقيماً فقد كان القانون يجيز ، والرأي العام يجذب ، أن يستعين الزوج في هذه المهمة

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

بأحد أقربائه ، وكان الطفل الذي يولد نتيجة لهذا الاتصال ينسب للزوج نفسه، (١)
وكان الطلاق يباح إذا تراضى الطرفان، وإذا افترقا بقى الأطفال مع أبيهم حتى إذا
ثبت الزنا عليه (فلا حضانة للأم كما هو الحال في الإسلام)، وجملة القول، حسب
رأي ديورانت، أن العادات والشريعة الأثينية فيما يختص بالعلاقات بين الرجال
والنساء كانت كلها من صنع الرجال، وهي تمثل نكوصاً عن المستوى الذي وصل
إليه المجتمع في مصر وكريت وبلاد اليونان نفسها في عصر "هومر". (٢)

ومن الغريب أن النساء، أسما وجسماً، قد اختفين من الإسهام في صناعة
الحضارة اليونانية، في آخر عصرها، حتى كتب "فلوطارخس" قول "توكيديدز":
"يجب أن يحبس اسم السيدة المصونة في البيت، كما يحبس فيه جسمها". (٣)

ونتيجة لحبس الزوجة في المنزل، وإبعادها عن الحياة العامة، تدهورت مكانتها في
المجتمع اليوناني بشكل خطير، حتى كتب "صولون" في شرائعه "إن العمل الذي
يقوم به إنسان تحت تأثير المرأة عمل باطل قانوناً. (١١) ولعلنا لازلنا نذكر آراء "بوذا"
في الهند عن المرأة كذلك، وكان الزوج إذا مات لا ترث المرأة (الزوجة) من ماله
شيئاً!! (٤)، وسوف نرى شريعة الإسلام العظيم في هذا المجال بعد ذلك إن شاء
الله، وكيف رفعت المرأة مكاناً علياً.

الحضارة الرومانية:

بعد أن يعرض المؤلف لنهضة روما وسيادتها وانتصاراتها يغوص في أعماق المجتمع
الروماني فيحدثنا عن الأسرة، وهو ما يهمننا من هذا السفر الضخم والعظيم فيقول: إن

(١) المرجع السابق، ص ١١٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٦.

(٣) المرجع السابق، ص ١١٧.

(٤) المرجع السابق، ص ١١٨.

سلطة الأب كانت مطلقة من كل القيود... فكان هو وحده صاحب الحقوق القانونية في عهد الجمهورية الأولى، كما كان هو وحده الذي من حقه أن يشتري العقار، ويحتفظ به أو يبيعه، وأن يتعاقد باسمه، بل إن بائنة زوجته كانت ملكاً خاصاً به، وإذا ما اتهمت زوجته بجريمة أحيلت إليه هو (!!) ليحاكمها. . بل وليعاقبها بنفسه، وكان في مقدوره أن يحكم عليها بالإعدام إذا خانت، أو حتى سرقت مفاتيح خزائن خمره...!!

وحسب قانون "روما" لم يكن للمرأة أن تظهر في المحكمة، حتى ولو كانت شاهدة، وإذا مات زوجها لم يكن لها أن تطالب بأي حق لها في ماله، وكان له - إذا شاء - أن يجرمها من أن ترث شيئاً من ماله. وكانت في كل أدوار حياتها تحت رقابة رجل، هو أبوها أو أخوها أو زوجها، أو حتى ابنها، أو وصي عليها،^(١) وهي لا تستطيع أن تتصرف في مالها، أو حتى تتزوج بغير رضاه،^(٢) ولا شك أن هذه المكانة التي انحدرت إليها المرأة في الحضارة الرومانية أبعد ما تكون عن كرامة المرأة، وعن احترامها.

وفي المجلد العاشر يحدّثنا "ول. ديورانت" عما أسماه بالمرأة الجديدة التي ظهرت وبرزت في المجتمع الروماني نتيجة ازدياد الثروة، وفساد الأخلاق، والانحلال الخلقي، وانفصام رابطة الزواج، وحيث "ظلت الدعارة منتشرة في البلاد، وحيث زاد عدد المواخير والحانات التي كانت تأوي العاهرات، كما أصبح الزنا من الأمور العادية، وألفه الناس بحيث لم يعد يستلفت أنظارهم وكان الأزواج يختارون زوجاتهم، والنساء يخترن أزواجهن ليحصلوا على أكبر البائئات، أو على صفات

(١) ول. ديورانت: قصة الحضارة... قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية، المجلد التاسع، ترجمة محمد بدران، ط٣، ١٩٧٢م، ص ١١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٠.

يفقدن منها جاهها ومالاً. (١) ولقد أغضبت هذه الحال واحداً من مفكرهم هو " كاتو " فوصفها وصفاً لاذعاً قائلاً: " إن الإمبراطورية أصبحت توكيلاً لإدارة شؤون الزواج " ، (٢) وذلك حين كثرت زيجات المنفعة والزيجات السياسية .

ويفسر الباحث في الحضارات ، والمؤرخ المدقق أنه كان من أسباب انحراف المرأة الظروف السيئة التي فرضها عليها المجتمع الروماني ، ومن هنا استخفت بقسم الزواج ، ووجدت في الصلات الجنسية غير المشروعة الحب والعطف . (٣) ولقد حطمت الحرية الجديدة التي سادت المجتمع الروماني سلطة الأب ، بل وحطمت كيان الأسرة ذاته ، وأصبحت النساء يتمتعن بمثل حرية الرجال ، بل وصرن يطلقن أزواجهن . . تماماً كما يفعل الرجال ، والواقع أن كل هذه المقدمات ، أي الانحلال الأخلاقي ، والتفسخ الأسري ، وغياب الضوابط والمعايير ، كانت كلها مؤذنة بانحلال تلك الحضارة ، وبتصدع بنائها ، وجميعنا نعلم أن الإسلام كان قد سطعت شمسهُ في جزيرة العرب ، وكان حتماً أن تتصادم الحضارتان ، وكان حتماً كذلك أن يكون النصر للأصلح والأقوم .

جزيرة العرب:

ويحدثنا عنها " ول . ديورانت " في المجلدين الثالث عشر والرابع عشر وقد أعطاها عنواناً دالاً . . هو عصر الإيمان . . ويبدأه بظهور الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، في مكة ، وبعثته ، ثم هجرته إلى المدينة المنورة ، وانتصاره على أعدائه من الكفار والمشركين ، يقول الرجل عن سيد البشر أجمعين ، فيما يتعلق بموضوع " المرأة " وكان تعدد الزوجات في نظر النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أمراً عادياً مسلماً به لا

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧٩ .

غبار عليه ، ولذلك كان يقبل عليه وهو مرتاح الضمير ، لا ينبغي به إشباع الشهوة الجنسية . . ولقد كانت بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتي توفي عنهن أتباعه أو أصدقائه ، وكان بعضها زيجات دبلوماسية . (١)

وبين المؤلف نقشف النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في بيوته ، مع زوجاته ، فلم يكن ينفق على أسرته إلا القليل من المال ، رغم ما كان يرد إليه من الفيء وغيره من الموارد ، أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل القليل . (٢)

ومباشرة يبين " ول . ديورانت " أن الإسلام قد رفع مكانة المرأة في بلاد العرب ، وإن لم ير عيياً في خضوعها للرجل . . . وهو يحرم على النساء ولاية الحكم ، لكنه يسمح لهن بحضور الصلاة في المساجد . . . وقضى القرآن على عادة وأد البنات (سورة الإسراء / ٣١) ، كما سوى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاستقلال المالي ، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال ، وأن تحتفظ بملابسها ومكاسبها ، وأن ترث ، وتتصرف في مالها كما تشاء (النساء / ٤ ، ٣٢) وقضى على ما تعود العرب عليه في الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع . (٣)

كما أن الإسلام منع زواج النساء بغير إرادتهن . وفي القرآن آية يأخذها بعضهم حجة على حجب النساء وهي ﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ (الأحزاب / ٣٣) . ويؤكد صاحب قصة الحضارة الذكي والفاهم أن هذه الآية إنما أنزلت لتؤكد النهي عن التبرج ، وقد طلب النبي من زوجاته بناء على أوامر القرآن الكريم ألا يكلمن الرجال إلا من وراء حجاب ، وفيما عدا ذلك فإن نساء المسلمين كن يخرجن من البيوت بكامل حريتهن . (٤)

(١) ول . ديوانت : قصة الحضارة . . عصر الإيمان ، (المجلدان ١٣ ، ١٤) ، ترجمة محمد بدران ، ص ٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ص ٦٠ - ٦١ .

هذا ولقد حتم القرآن الاستعفاف قبل الزواج (وبعده بطبيعة الحال)، وأوصى النبي، صلى الله عليه وسلم، بالصيام للاستعانة على هذا الاستعفاف ويشترط الدين الإسلامي رضاء الخطيبين لإتمام عقد الزواج، فإذا تم هذا الرضاء بشهادة الشهود العدول، وأدى العريس مهر عروسه، كان ذلك كافياً لإتمام العقد، سواء رضى بذلك آباء العروسين أو لم يرضوا، وعدم الزواج في الإسلام، كما هو في الدين اليهودي، إثم، والزواج فيه فريضة محبة إلى الله (النور - ٣٢) . .

وأجاز الإسلام تعدد الزوجات بحيث لا يزدن على أربع. (١) هذا ولقد حرم الإسلام التسري، كما حرم الزنا أشد التحريم، كما نهى عن رمي المحصنات . . . ويقول الكاتب في لمحة ذكية " وقد قل الاتهام بالزنا بعد النهي عن ذلك (النور/ ٤) . وأباح الإسلام الطلاق للرجل كما أباحه التلمود، وللمرأة أن تطلق نفسها من زوجها بأن ترد له صداقها (البقرة- ٢٢٩) لكن الإسلام وإن أجاز للزوج أن يطلق زوجته فإن النبي، صلى الله عليه وسلم، لم يكن يشجع عليه. (٢)

والقرآن نفسه يحض على عدم قطع العلاقة الزوجية إلا بعد أن تبذل الجهود للإصلاح بين الزوجين ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريداً إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾. (النساء/ ٣٥) . ولا يصلح الطلاق نهائياً إلا بعد صدوره ثلاث مرات بين كل واحدة والأخرى شهر على الأقل (هكذا). (٣)

ويختتم باحث الحضارات الموسوعي حديثه عن المرأة في الإسلام فيلمس الرقة والعطف في معاملة الرسول، صلى الله عليه وسلم، لزوجاته " وكان النزاع يقوم في بعض الأحيان بين النبي وبعض أزواجه، كما يحدث عند غيره من المسلمين، ولكنه

(١) المرجع السابق، ص ص ٦١ - ٦٢ .

(٢) المرجع السابق، ص ٦٣ .

(٣) المرجع السابق، ص ٦٣ .

كان على الدوام يعزهن، ويظهر لهن ولغيرهن من النساء المسلمات ما يليق بهن من عواطف طيبة. (١)

ويروى عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال إن المرأة الصالحة أثمن شيء في العالم. ويذكر الله الناس في القرآن مرتين بأن أمهاتهم حملنهم كرهاً ووضعنهم كرهاً، وأرضعنهم أربعة وعشرين أو ثلاثين شهراً ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾. (الأحقاف/ ١٥) ويروى عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "الجنة تحت أقدام الأمهات". (٢)

ولعلنا نحن المسلمين نتفق على أن هذا العلامة قد فهم، إلى حد بعيد، روح الإسلام في التعامل مع المرأة، مما رفع من مكانتها، وأعلى قدرها، كما لم يحدث من قبل في حضارة من حضارات العالم، باتساع الكرة الأرضية، وعلى مدار التاريخ البشري كله.

عصر النهضة:

وفي الجزء رقم (٢١) في قصة الحضارة، والذي عنوانه "ديورانت" هو والجزء (٢٢) بعنوان "النهضة والإصلاح الديني" نجده يتحدث عن المرأة في ذلك العصر، فيقول إن شهوة العري كانت تملك النساء أحياناً إلى حد تخرج فيه عن المعقول، حتى لقد قال «ساتش» إن بعض النساء يتعرين تماماً إذا خلعن أحذيتهم...!! (٣) ولكنه يذكر أن المرأة اهتمت بالتعليم وبالفنون وبالملايس المزركشة، والخلاصة "أن النهضة الإيطالية، كالاستنارة الفرنسية، قامت على أكتاف الجنسين، فكانت النساء يرتدن كل ميدان من ميادين الحياة". (٤)

(١) المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٤.

(٣) ول. ديورانت: قصة الحضارة. النهضة والإصلاح الديني (المجلدان ١١، ١٢) ترجمة محمد بدران، ص ١٠٥.

(٤) المرجع السابق، ص ص ١٠٦-١٠٨.

وبعد . .

فهذه لمحات من هذا السفر العظيم الضخامة (٣٢ جزءاً) وقعت في عدد من الصفحات وصل أكثر من ستة آلاف صفحة، وتوفر على ترجمة أجزاءه عدد من كبار الأساتذة، فما كان بمستطاع شخص واحد أن يقوم بهذا العمل الضخم منفرداً، وإلا لاستغرقه سنوات وسنوات، كما استغرق المؤلف، وشتان ما بين التأليف والترجمة . . !!

ولضخامة الموضوع . . قصة الحضارة الإنسانية، قسم "ديورانت أجزاءه على مناطق العالم المختلفة وأقاليمه، وأعطى كل حضارة حقها من البحث والدراسة وعمق التفكير، وكان لابد أن يضع لها عنواناً مستقلاً، كما سبق وبيننا ذلك عند الاستشهاد من هذا السفر الضخم، وقد وفق الرجل أيما توفيق حين وضع لجزيرة العرب عنواناً دالاً . هو "عصر الإيمان"، وقد ثبت أن الإيمان ليس كمثله شيء فيما يفعله في النفوس التي زكاها ورفعها بحيث أخرجت العربي الجاهل الذي كان يحارب جيرانه لأربعين سنة لأتفه الأسباب، رفعت له لتجعل منه إنساناً جديداً تماماً. إنسان صانع للحضارة مؤسس لقيمها. ويكفي أن الدين الإسلامي العظيم، في خلال أقل من ربع قرن، منذ البعثة وحتى توفي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد خرج للعالم - وليس للعرب أو لجزيرتهم - قادة عظاما في كل مجال من مجالات "صناعة الحضارة" إن جاز التعبير، ولم يكن ذلك ليحدث لولا أن أصول هذه الحضارة مستمدة من فوق سبع سماوات، من لدن حكيم خبير، وقد أتى منهجها "من عند الله - جلّت قدرته - على شكل كتاب فصلت آياته، لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وقام على تنفيذ هذا الكتاب معلم هو أسمى البشر جميعاً، صلى الله عليه وسلم، وكان لابد، والحال هذه، أن يكون الخريجون . . خريجو مدرسة

الإسلام العظمى، أو جامعته الرائعة على مستوى " المنهج " الذي أنزل إليهم، وعلى مستوى " المعلم " الذي علمهم الكتاب والحكمة . . فكان الصحابة العظام الذين أذهلوا العالم في كل مجال من مجالات الحياة البشرية، والذين سوف يظل العالم كله يتحدث عنهم، ويدرس إنجازاتهم إلى أن تقوم الساعة .

أذكر عبارات قلتها في كتاب لي عن " التربية والتنمية في الإسلام " وكنت أتحدث عن " المخرجات التربوية " لجامعة الإسلام العظمى، لعل الاقتباس منها هنا يفيد، خاصة ونحن نتحدث عن " حضارة الإسلام " ومكانة المرأة التي تبوأها فيها جزء أساسي منها، أي من هذه الحضارة، قلت :

" وإذا كان بعضنا يفخر بأنه قد تخرج من بعض الجامعات ذات السمعة العلمية العالمية المشهورة، وإذا كانت الأعمال تقاس - دائماً - بنتائجها، فلا نتصور أن هناك جامعات وقفت، أو يمكن لها أن تقف، في مقارنة علمية موضوعية، أمام جامعة الإسلام العظمى، تلك الجامعة التي نزل منهجها من فوق سبع سماوات، من لدن حكيم خبير، ونفذها خير الخلق أجمعين، صلى الله عليه وسلم : ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذا بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين﴾ . (آل عمران / ١٦٤) .

وفي نطاق علمنا المحدود بمناهج المدارس والجامعات عندنا، وعند غيرنا، لا نعتقد أن هناك واحدة من هذه الجامعات أو المدارس يمكن أن تعلّم من التحق بها . . الحكمة . . بكل ما تعنيه من أمور الدين . . والدنيا . . معاً . . !!

إننا نسمع عن الحكماء . . عبر التاريخ . . في شعوب العالم المختلفة، باعتبارهم عملة نادرة، لا يجود الزمان بمثلها إلا قليلاً، وقد تمر أجيال بأكملها لا يولد فيها واحد من هؤلاء الحكماء . . ولكن أن تكون هناك مدرسة أو جامعة تخرج هؤلاء

الحكماء فهذا هو الجديد . . وهو المعجز، والذي لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال مدرسة الإسلام العظمى، ولذا فلم يكن غريباً أن يحفل الجيل الأول . . والرعييل الممتاز من صحابة الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالحكماء الذين تخرجوا من جامعة الإسلام الرائعة والمتميزة، في كل مجال، في العلم وبحوره الواسعة والعميقة . . وعلى ابن أبي طالب، رضي الله عنه، نموذج لا يداني لهؤلاء الحكماء الذين تعلموا العلم وشربوه على يد خير الأنام، صلى الله عليه وسلم، ومن ورائه طابور طويل من رواة الأحاديث، وحفاظ القرآن الكريم، والمفسرين الذين لم يجد الزمان بمثلهم، والفقهاء العظام الذين يندر وجودهم في أية أمة بهذه الكثرة الهائلة .

وفي مجال الحكمة . . والخصافة . . وبعد النظر والثبات في الأمر حين تهب العواصف، وتدلم الخطوب، وحين تحتاج الأمة لحكيم يقبض بيد قوية ثابتة على دفة المركب، ويسيرها وسط العواصف العاتية، وبين بحار الظلمات الرهيبة، هل هناك من جامعة استطاعت أن تخرج حكماً مثل " أبي بكر "، رضي الله عنه، ذلك الصحابي الرائع، صاحب الفكر الثاقب والنظر البعيد الذي أنقذ الأمة الإسلامية الوليدة من أخطر ما واجهها، بعد وفاة صاحب الرسالة، وغيابه تحت الثرى . . صلى الله عليه وسلم . .؟؟

وهل هناك جامعة، في أي مكان في الدنيا، يمكنها أن تأمل من جيل بأكمله، من خريجيها، أن يقودوا أمة بأكملها، وأن يسوسوا أمورها، في سياسة داخلية وخارجية، في سلم وفي حرب، في رعاية مصالحها الاقتصادية، وفي السهر على حل مشكلاتها الاجتماعية، في نشر عدل ندر أن جاد الزمان بمثله، وفي حسم مع الولاة والأمراء قبل الأفراد العاديين، وفي إنشاء دواوين، وفي رعاية أرامل وأيتام، في بكاء بالليل خشية الرحمن، وفي تعب وكد بالنهار، حرصاً على مصالح المسلمين . . . كما كان يفعل عمر بن الخطاب . . . الفاروق . . . رضي الله عنه . .؟؟

وأصحاب الأمثلة التي يمكن أن يتوقف عندها الإنسان، وهو يحاول أن يحصي عظماء الرجال، من الصحابة الأطهار، الذين تربوا على يدي المصطفى، صلى الله عليه وسلم، قد لا يمكن حصرهم وعدهم وتصنيفهم... كل في مجاله الذي أبدع فيه وبرع، ولكن يكفي أنهم غيروا وجه الحياة، في جزيرة العرب، ثم انتقلوا بهذا التغيير إلى الامبراطوريات التي كانت معروفة آنذاك، فغيروها هي الأخرى، وكانت كتابتهم مكونة من المجاهدين المسلمين الذين باعوا أنفسهم لله، ليشتروا بها الحياة الآخرة، وكان على رأس هذه الكتائب والجيش قادة عظماء، تخرجوا من جامعة الإسلام العظمى، وتربوا على يد أعظم قائد ومعلم، فكان الرجل منهم، في حد ذاته... جيشاً... في قلبه وبأسه وشجاعته وقوته... وبراعة حيلته، والذين يريدون معرفة هذه النوعية من الخريجين العسكريين لهذه الجامعة الأم عليهم أن يقرأوا عبقرية خالد بن الوليد، وبراعة سعد بن أبي وقاص، وشجاعة الزبير بن العوام، وحماسة أسامة بن زيد... القائد الشاب، بل القائد الذي كان في مستهل الشباب. (١)

ولكن لماذا هذا الحديث عن "جامعة الإسلام" في هذا المجال، مجال مكانة المرأة في الإسلام، وبالذات بعد أن استعرضنا حضارات الشعوب والأمم المختلفة عبر العصور...؟؟ لعلني أبين ذلك في السطور التالية.

تقول دراسة حديثة عن "اليونيسكو": "وفي محاولة لفهم وتفسير مركز المرأة في العالم" يتبع علماء الاجتماع، واحداً من بين عدة مناهج نظرية، وقد استخدمت هذه المناهج ذاتها لإيضاح مركز المرأة على الصعيد العالمي ودورها في عملية الإنماء ذي الصلة بالموضوع، إذ أنه ليس ثمة شك في أن مركز المرأة هو أدنى من مركز الرجل

(١) محمد عبد العليم مرعي: التربية والتنمية... في الإسلام، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ص ٢١ - ٢٣.

في كل مكان، وإلا ماغدت المرأة هدفاً محدداً للمشاريع الإنمائية، ونقطة التركيز في المؤتمرات الدولية، من أمثال " المؤتمر العالمي للعام الدولي للمرأة " الذي انعقد في مدينة " مكسيكو سيتي " عام ١٩٧٥م، وقد كان الهدف المعلن لهذا المؤتمر هو " إرجاع المرأة في عملية الإنماء بوصفها الشريك المادي للرجل . . وبقدر ما نعلم فلم يعلن أحد بعد عن عام دولي للرجل " . . !! (١)

وإذن فهذه هي هيئة عالمية كبرى " اليونيسكو " تعلن، قرب نهاية القرن العشرين، أن " مكانة المرأة Woman Status " لازالت متدنية بالنسبة للرجل، وأنها بطبيعة الحال لا تساويه، وتقول الوثيقة السابقة نفسها إن الجهل بالأحوال الحقيقية للمرأة لا ينحصر في المنطقة العربية، ولا يقتصر عليها، بل إنه ينطبق على الصعيد العالمي، وهو ينبع إلى حد ما من الاتجاه العام الذي ساد حتى مدة قريبة، والذي لا يرى أهمية لأدوار المرأة، بل يعتبر هذه الأدوار، في أحسن الأحوال، أدواراً هامشية. (٢)

هذه - إذن - هي القضية، فعلى مستوى العالم، لازالت مكانة المرأة متدنية، ولازالت هامشية، باعتراف اليونيسكو. وإذا قمنا معاً نربط الماضي بالحاضر، منذ عصور ما قبل التاريخ، منذ الإنسان البدائي وعبر حضارات الشعوب المختلفة التي سبق ومررنا عليها . . وحتى يومنا هذا، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين لوجدنا أن مكانة المرأة كانت في معظم الأحوال، متدنية ومهمشة، اللهم إلا في حضارة واحدة فقط هي الحضارة الإسلامية . . دون ادعاء . . فلماذا . . ؟؟

الإجابة سهلة وبسيطة وميسرة، ولا تحتاج لكثير من الفلسفة، أو إعمال الفكر. إن

(١) اليونيسكو، الدراسات الاجتماعية عن المرأة في العالم العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٨.

كل الحضارات السابقة على الإسلام، واللاحقة به بعد ذلك، هي حضارات من صنع البشر، في أصولها وجذورها، ولذا أتت وفيها قصور هؤلاء البشر، ثم إن الذين كتبوا القوانين أو سنّوا اللوائح الخاصة بالمرأة وبمكانتها، كانوا جميعاً، وبلا استثناء... من الرجال، وما كان يمكن هؤلاء الرجال أن يعطوا المرأة حقوقاً مثل حقوقهم، ولا أن يجعلوها تتبوأ مكانة مساوية لمكانتهم، لأنهم يريدونها فقط لاستمتاعهم... هم، وللتسرية عنهم... هم، ولخدمة أغراضهم... هم، ولعل مراجعة الصفحات السابقة تبين هذا وتؤكد، حتى في جزيرة العرب التي كان بعض أفرادها من الغلظة وقسوة القلب بحيث كانوا يقومون بؤاد بناتهم، أي دفنهن أحياء في التراب، وقد قال فيهم الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ، أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ، أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. (النحل / ٥٨-٥٩). ولكن ماذا حدث في شبه جزيرة العرب تلك بحيث تغيرت تماماً صورة المرأة في الحضارة الإسلامية، وبحيث تبوأ مكانة - بالإسلام - لم تُسبق قبل ذلك في التاريخ الإنساني، وهي لم تُلحق، دون مبالغة أو ادعاء، حتى يومنا الراهن، في أي مكانٍ على خريطة الكرة الأرضية، حتى عند الشعوب المتقدمة في أمور وشؤون الحضارة المادية...؟

ما حدث أجابنا عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في كلمات قلائل، لخصت القضية، أي قضية "مكانة المرأة في الإسلام" قال رضي الله عنه: "والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد النساء أمراً، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم". (١) والذين تعمقوا دراسة شخصية عمر بن الخطاب يعرفون أنه كان يعني كل لفظ يقوله، وأكاد أقول كل حرف، فلقد كان أديباً ذواقاً، وكان حساساً لكل كلمة يقوها

(١) سعيد الأفغاني: الإسلام والمرأة، مطبعة الترقى، دمشق، (بدون تاريخ)، ص ٢٤.

ويكفي أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، والذي لا ينطق عن الهوى ، قد امتدحه في أكثر من مناسبة ، كما يقول العقاد رحمه الله . " ومن قوله في بعض ما نقل عنه ، عليه السلام " لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب " ، وقوله : " إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه " . . . وقوله : " عمر بن الخطاب معي حيث أحب . وأنا معه حيث أحب ، والحق بعدي مع عمر بن الخطاب حيث كان " . (١)

ونرجع إلى عبارة عمر ، رضي الله عنه ، والتي لخص فيها مكانة المرأة في الإسلام : " والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد النساء أمراً ، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم " . . .

" ما نعد النساء أمراً " . . . هذا هو كلام الجاهلية . . على لسان من كان شديداً في الجاهلية ، جباراً على الإسلام والمسلمين ، النساء عنده ، وعند غيره - في الجاهلية - لا حساب لهن ، ولا اعتبار ، ولا مكانة . . . بل هنّ . . . لا شيء ، بكل البساطة ، والصراحة ، والوضوح التي امتاز بها العربي ابن الصحراء ، والذي كان عمر ، رضي الله عنه ، خير معبرٍ عنها . . وخير ناطق .

ثم ماذا . . ؟؟

أنزل الله في النساء ما أنزل . . .

انتهى الأمر إذن . . ولا دخل للبشر فيه . . !!

إنه أمر الله ، عز وجل ، فهو واجب النفاذ على الجميع ، وتلك هي قسمة المولى ، جلت قدرته ، ولا يمكن لإنسان مسلم . . مؤمن . . إلا أن يسلم بما قضى الله ورسوله ، حسب نص القرآن العظيم ، حتى ولو كان أمر الله في نفس ذلك المؤمن ، وفي أخص خصوصياته ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا ﴾

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية عمر ، المكتبة العصرية ، بيروت - صيدا ، (بدون تاريخ) ، ص ١٥٤ .

قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعصي الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴿٣٦﴾ . (الأحزاب / ٣٦) .

وسلم المسلمون بما أمر الله ، فتغيرت مكانة المرأة - بالإسلام - من النقيض إلى النقيض ، فأصبحت " شقائق الرجال " ، كما أخبر بذلك سيد الخلق أجمعين ، وصار ذلك في سلوكيات المسلمين جميعهم لما رأوا نبي الرحمة وهو يعامل النساء بمتهى الرقة والرحمة ، بل والرأفة والعطف حتى وإن كن غير مسلمات ، لأن العاطفة عند النساء جياشة فياضة ، وحساسيتهن زائدة يقول العقاد " وكان إعزاز من ذلوا بعد عزة سنة النبي عليه الصلاة والسلام في معاملة جميع الناس ، ولاسيما النساء اللاتي تتكسر قلوبهن في الذل بعد فقد الحماية والأقوياء ، ولهذا خيّر صفية الإسرائيلية ، سيدة بني قريظة ، بين أن يلحقها بأهلها أو أن يعتقها ويتزوج بها ، فاختارت الزواج منه ، عليه الصلاة والسلام .

وآية الآيات في رعاية الشعور الإنساني أنه عليه الصلاة والسلام أنب صفية بلالا لأنه مر بها وبابنة عمها على قتلى اليهود ، فقال له مغضباً : أنزعت الرحمة من قلبك حتى تمر بالمراأتين على قتلاهما ؟ . واحتقرتها زينب ، إحدى زوجات الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فلقتبتها يوماً باليهودية ، فهجرها شهراً ، لا يكلمها ، ليأخذ بناصر هذه الغربية ، ويدفع عنها الضيم " . (١)

وانساحت هذه الروح العظيمة من المودة . . والمعزة . . والإكبار . . والرحمة . . والتقدير . . من روح المعلم الأسمى ، صلى الله عليه وسلم ، ومن سلوكياته العملية ، ودروسه التربوية ، انساحت في نفوس أصحابه ، صلى الله عليه وسلم ، في كل يوم مر في حياة المسلمين ، وفي كل موقف اعترض حياتهم ، بحيث صارت جزءاً من شخصياتهم في تعاملهم مع المرأة .

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية محمد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٦٩ م ، ص ١٦ .

وعلى الطرف الآخر تغيرت شخصية المرأة المسلمة بتغير مكانتها في مجتمع المسلمين الجديد، بعد إقامة دولة الإسلام في المدينة المنورة، فعرفت حقوقها، وأدت ما عليها من واجبات، وصارت تشعر أنها - فعلاً - نصف الأمة، ونصف المجتمع، وظلل ذلك كله عبادة لله، وخشوع وخضوع لأحكامه، فازدادت مكانتها ترسخاً في قلوب المسلمين، وأصبحت وهي في موضع لم تعرفه المرأة من قبل في جميع حضارات الدنيا.